حول رسالة مجلة الإسلام والتصوف :

موقف التصوف الاسلامى
من التطور . والحضارة . والتصوف العالمى

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

يتلقى تحرير المجلة فيضا متدفقا متتابعا من رسائل السادة القراء ، تفيض بالإعجاب الكبير ، وتنبض بالحب والتقدير ، ثم يفيض الحماس بهذه الرسائل فتندفع إلى مقترحات نابعة من القلب المحب الوفى ، تدور حول رسالة « مجلة الإسلام والتصوف » وما يجب أن تتخذ من منهج ، وما ينبغى أن تتسع له من أبواب ، وما تبتدع من آفاق تنفسح حتى تشتمل جوانب الحياة العصرية المتطورة .

ويتلقى تحرير المجلة أيضا سيلا من الرسائل التى تتعرض لموقف الدين والتصوف من الحياة ومشاكلها . ومن الحضارة وتطورها .

وفى بعض سطور هذه الرسائل قلوب تنبض بالأمل ، وفى بعضها قلوب تفيض بالقلق ، وبين هذه السطور وتلك ، مشاكل نفسية ، وثقافات حائرة ، واستفسارات وتحويمات حول ما يعيش فيه شبابنا من تيارات فكرية جامحة ، وفلسفات مادية حادة ، وما يحيط بهم هنا وهناك من أوجه الحضارة المتطورة ، بدويها الشهوانى الرهيب ، وبريق فتنتها العجيب ، وما يصحب هذا وذاك من تشكيك فى المثل العليا حينا ، وفى الرسالات السماوية وأهدافها أحيانا .

ومن هذا المزيج العجيب تصاغ عقول شبابنا ، وفى هذا التيه الغامض ، تترعرع قلوبهم مفعمة بالتناقض وبالشك وبالحيرة ، وهم يتلمسون الأبواب ، ويتطلعون فى الآفاق ، ينشدون شعاعا هاديا ، أو دليلا مرشدا منقذا .

وأصحاب الأقلام الدينية فى عزلة عجيبة، يحلقون بعيدا بعيدا فى آفاق مصطلحاتهم الفقهية، ومشاكلهم الكلامية، ودراساتهم التى لا تتصل بالحياة، ولا تتصل الحياة بها.

واحب هنا أن أناقش هذه الرسائل حتى نصل معا إلى المنهج الهادف للصحافة الصوفية الإسلامية.

وحتى نصل معا إلى قبس من النور نلقى به فى طريق شبابنا، ونفحة من الاطمئنان نرسلها إلى قلوبهم أمنا وهدى.

ومن بين هذه الرسائل رسالة وقعها صاحبها بإمضاء «ع. بدوى» طالب بكلية الحقوق جامعة الاسكندرية، يقول فيها بعد ثناء عاطر جميل نشكره عليه:

«إننى أشعر براحة روحية فى أعماق قلبى عند مطالعتى لمجلتى الحبيبة ـ الإسلام والتصوف ـ تلك التى سدت فراغا من علم فى ثقافتى العصرية..».

ثم يقول: «أنا شاب عصرى مثالى النزعة لى مثلى العليا أحس بروحى كالنسر تحلق فى آفاق الكون، لكن أحس فى الوقت نفسه بجاذبية التطور تتجاذبنى بقوة، وكثيرا ما أقع فى حيرة فكرية تنهش قلبى المعذب التائه هى:

هل للتصوف مكان واقعى فى هذا العصر المادى؟

هل للتصوف الآن حقيقة واقعية أم هو خيال؟

هل التصوف يعنى مثلا مدنية حضارية، أم يمثل بداوة الصحراء؟

إن لكل مذهب، ولكل فلسفة انطباعات فى الذهن البشرى وفى القلب الإنسانى، فى تفكير السياسة، وفى مناهج العزة، وفى تخطيط العلم، وفى تعبيرات الفن.

إننى أرى أن مجلة ـ الإسلام والتصوف ـ تحصر هدفها فى تاريخ التصوف الإسلامى، وتمسك عن ذكر ما هو غير إسلامى، وهذا خطأ، فالإسلام عصرى وإنسانى، تنطوى تحت اعلامه كل العصور والقرون، ويطوى فى إهابه كل الديانات وكل الحقائق؟

لماذا لا تتحدث المجلة عن الرائد العصرى المثالى ، رائد الحب المعلم (فيتوبها) الهندى ، وعن (ويتمان) فيلسوف أمريكا الروحى ، وعن (س . اليوت) شاعر التصوف الانجليزى ؟

كنت أحب أن أرى صفحة - من تجاربى - وباب - ذكريات أو مذكرات صوفى - وباب - شخصيات صوفية - وباب - من القراء وإليهم - بصفة مستمرة ،

ثم يقول : « أحب أن أرى بحوثا فى التصوف المسيحى والتصوف البوذى ، والتصوف الهندوكى ، والتصوف الكنفوشوسى ، وكذلك أيضا التصوف الوجودى .

افتحوا لنا فى المجلة الأبواب والمنافذ ، لنرى النور العالمى ، فهذا هو التجديد والتطور ، وهذه هى الحياة ، الحياة العصرية المقدسة ، تلك التى قدسها غاندى وبرناردشو وه . ج ويلز و ستيفرز ؟ » .

ثم يقول : « اعلموا أن التصوف مصدره ليس الدين فى حد ذاته ؟ ولكن مصدره الحقيقى ، ومنبعه الأصلى هو المثالية (الأخلاق الفلسفية) .

تلك خلاصة مركزة لرسالة الطالب الأديب ، وهى تعطى صورة حية ناطقة لحيرة شبابنا وقلقه واندفاعه وخطفه لبعض شذرات مبتورة من الثقافة العامة ، شذرات غير متجانسة ولا متحدة .

ومع ما فيها من حرارة وإخلاص واستشراف للخير ، فطابعها التناقض والسبح غير المدرب ولا المتسق فى أجواء وأهواء متعددة متعارضة .

وشبابنا حقا فى حاجة ملحة إلى انتقاء ما يقرأ ، وفى حاجة ماسة إلى أن نضىء فى قلبه ، وفى عقله ، المعانى الإسلامية ، ونحدد له رسالتها ومناهجها وموقفها من الفلسفات والتيارات المعاصرة التى تواثبه وتخايله ، حتى لا يخدع فى بريقها وأهدافها .

فهذا شاب يحاول جاهدا أن يقرأ ما يكتب عن دينه وله مثله العليا ، ولكنه كما يقول : يحس بجاذبية التطور العصرى ، حتى ليقع فى حيرة قلقة ، تنهش قلبه المعذب ، وتتنازع روحه فى اتجاهاتها .

وتبعث فى قلبه شكا ملحا قاسيا يدفع به بعد إعجابه بالتصوف الإسلامى أن

يتساءل . هل للتصوف مكان واقعى فى هذا العصر المادى ؟ وهل التصوف حقيقة أم هو خيال ووهم ؟

وهل التصوف يمكن أن ينجب حضارة . أم هو من خصائص البداوة والصحراء ؟

وهذا القلق ، وهذه الحيرة ، هى التى دفعته إلى أن يقول : إن مجلة الإسلام والتصوف ، ليست مجلة عصرية تشارك فى الموضوعات العصرية .

وسر الحيرة لدى الطالب الأديب ، أنه يقرأ ما يدعو إليه التصوف من أخلاق عاليه ، ومن مثاليات مضيئة ، ومن روحانية عابدة ، ثم يصطدم بواقع الحياة المادى الطاغى ، ويصطدم بوجهها الشهوانى المنتشر فى كل مكان ، ويلتقى مع الأفكار الوجودية والفلسية والانحلالية التى يموج بها عصرنا موجا يملأ الآفاق ، فينال كل هذا من قلبه البرىء ، ومن وجدانه الرقيق ، ومن مثله العليا ، حتى يكاد يجحدها ، ولا يرى لها مكانا فى الحياة ، وحتى يظن أن التصوف بمبادئه ومثله ، هو شىء خيالى ، شىء لا يتفق ولا يتسق مع الحضارة ، إنه من جو الصحراء ، ومن طبيعة البادية ؟

وأنا أعذر هذا الشاب وأشفق على أمثاله وما أكثرهم عددا ، انهم جميعا ضحايا هذه الحضارة الخادعة الزائفة التى أتقنت وأبدعت فنون الإغراء العصرى ، وأتقنت وأبدعت فنون الكلام المادى الوجودى .

واستطاعت وهى التى تملك كل أدوات التعبير ، من صحف وصور وأغانى وسينما وقصص وتمثيليات ، أن تشوه المثل العليا ، بل استطاعت أن تهدمها وأن تسخر منها وأن تقيم مكانها كلمات خادعة زائفة باسم التطور ، وباسم العصرية ، وباسم الحضارة ، وهى كلمات لا تمثل فى خياله ، إلا انطلاق الغرائز ، وإنكار الحقائق ، وجحود الخالق والتمرد على الأديان ، وتصويرها بأنها مرحلة من مراحل البداوة انقضت أيامها وانتهى زمانها .

إن الدين باعتباره مثل صانعة للحياة هو أرقى وأعلى أوجه الحضارة الإنسانية ، ولكنها حضارة بصورة أخرى ، وبوجه آخر ، غير وجه هذه الحضارة العصرية ، حضارة الشهوات والنزوات والاحتكارات ، والانطلاق من كل قيد دينى وخلقى .

والتصوف هو قمة هذه الحضارة الدينية ، حضارة المثل العليا ، حضارة الأخاء والحب والتعاون والتراحم والتكافل الإنسانى ، حضارة العفة الجنسية والطهارة القلبية ، والسلام العالمى .

ثم هى فوق هذا لا تغفل أبدا — كما يتوهم الغافلون — عن القوة ومسبباتها ، والصناعة وآفاقها . ولكنها القوة التى تساند الحق لا الاستعمار ، والصناعة التى تعمل للخير لا للدمار .

ولماذا يكون التصوف يا أخى خيالا ، لا ينسق مع الواقع ، ولماذا لا يعيش إلا فى الصحراء ؟

يخيل إلى أن سر هذا الفهم ، هو ما يتصل بالتصوف من حديث عن الزهد والقناعة والرضا ، وهى كلمات أعترف بأنها كثيراً ما أوحت إلى الناس ، أو فهم منها بعض الناس غير ما قصد بها .

فالزهد الصوفى الذى عبر عنه الصوفية ، هو أكبر القوى الصانعة البانية فى الحياة ، هو عملية صقل وتطهير وتزكية للإنسانية لتبلغ كمالها النفسى الأبى الذى لا يعرف الذل ولا الضعف .

إنه عملية تصعيد وارتفاع فوق المادة وعبوديتها وما يرتكب باسمها وفى سبيلها .

إنه التفسير الحى لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة » .

فالصوفى لا يستعبد لمظهر من مظاهر المادة ، ولا يبيع ضميره ووجدانه وخلقه بملك الدنيا ، إنه دائماً يرتفع بنفسه وبإيمانه وبخلقه ، فوق كل رهبة ورغبة .

فالصوفى هو الذى يملك كل شىء ولا يملكه شىء ، أو بالمصطلح الصوفى : أن تكون الدنيا فى يده ، وليست فى قلبه .

ومن هنا كان بين المتصوفة القواد والملوك والعلماء وأصحاب الثروات والصناعات والشركات الزاهدين .

والتصوف ينادى بأن الله كما يقرر سبحانه فى كتابه الخالد ، قد سخر السموات

والأرض وما بينهما لنا ، ومن العبادة له أن نكشف عن أسرارهما ، وأن نضع أيدينا على مصادر القوه والطاقة فيهما ، وأن نبدع ونجدد ونبتكر ونتطور حتى يبلغ الوجود الإنسانى كماله الروحى والمادى فتتحقق له خلافة الأرض .

ومن ثم كان المنهج الصوفى ، من أكبر دوافع التطور الحضارى . التطور نحو الكمال الخلقى والمادى والدينى ، لا التطور الذى يلتمع فى أذهان الشباب الذى أضلته الحضارة العصرية ، فظن أن التطور ، هو الانطلاق والتمرد والمروق .

ومن عجب أن يمتزج معنى التصوف الإسلامى فى ذهن صاحبنا بالمذاهب الصوفية العالمية ، باعتبار أن التصوف لا ينبثق من الدين ، وإنما من الفسلفة ، فيدعونا أن نتحدث عنها باعتبارها من النور الصوفى العام ، الذى يهدى إلى الحق والإيمان .

والتصوف الهندى ، أو البوذى ، أو المسيحى ، قد يلتقى فى بعض جزيئاته فى السلوك والمعرفة ، مع التصوف الإسلامى .

ولكن التصوف الإسلامى وحدة قائمة بذاتها ، لأنه يستمد وجوده وروحه وهدفه من القرآن والسنة والرسالة الربانية .

ومن هنا يفترق منهجه الجذرى عن كافة المناهج الصوفية العالمية .

إن رسالته توحيدية نقية ، لا يعرف فى حبه وفنائه ما تعرف المذاهب الأخرى من حلول أو اتحاد بين البشرية والخالق جل جلاله .

ولا يعرف فى عباداته وأخلاقياته ومثله ، ما تستهدف المناهج الأخرى ، من رياضة نفسية ، أو تصفية روحية ، إن هدفه الأكبر هو رضوان الله ، ذلك هو الهدف ، أما التصفية والرياضة فهما الوسيلة لا الغاية .

تبقى بعد ذلك كلمة العصرية التى يقترحها صاحبنا كمظهر عام للمجلة العصرية التى تتحدث عن الفن والسياسة والأحداث العالمية .

وهذا يقتضينا أن نحدد أولا رسالة التصوف الإسلامى وصلته بالحياة ، وأثره فى توجيهاته .

ولا جدال فى أن الفهم الجذرى لرسالة التصوف يتطور اليوم وتتسع آفاقه ،

برقية الرئيس جمال عبد الناصر

لسماحة شيخ مشايخ الطرق الصوفية

تفضل السيد الرئيس جمال عبد الناصر فأرسل إلى سماحة السيد محمد علوان البرقية التالية .

« سماحة السيد محمد علوان . شيخ مشايخ الطرق الصوفية ورئيس المجلس الصوفى الأعلى . مصر

تلقيت بالتقدير البرقية التى بعثتم بها باسمكم وباسم المجلس والتى تضمنت أخلص المشاعر وجميل التهانى بمناسبة عودتنا من مقر الأمم المتحدة . وانى لأعرب لكم عن صادق الامتنان . كما أنى أشكركم جميعا أجزل الشكر على رقيق مواساتكم فى فقيد الوطن عدنان مدنى .

جمال عبد الناصر

وتمتد لمساته الإيمانية والأخلاقية والتربوية والاجتماعية الى عمق أبعد من مدلوله العام لدى الذين قبعوا داخل حرفيات وشكليات فنية للتصوف القديم .

ومن هنا نصبح أحوج ما نكون الى تحديد معنى التصوف ، وما تشتمل عليه رسالته ، وما يستهدفه منهجه ، وفوق هذا كله موقفه من الحضارة وصلته بها وأثره الإيجابى فى مثلها وانطباعاتها .

وهذا موضوع مقالنا التالى ان شاء الله .